(الكميات الصوتية بين الدراسات اللغوية والقراءات القرآنية)

مداخلة : الدكتور مكي درار
من جامعة وهران السانية

عناصر المداخلة وعناوينها الفرعية

اللغة أصوات، والأصوات كميات، والكميات موازين وقياسات.

للغة ظاهرة إنسانية باتفاق، والظاهرة كل متبدل متغير زائل غير ثابت ولا مستقر على حال، وإذا قلنا اللغة ظاهرة، فإنما نعني بذلك أنها كائن متغير أو متجدد، والمفردة الأخيرة أقرب من غيرها للتعبير عن حال اللغة ووظيفتها.

ومفهوم التغيير والتجديد تعبير يخص اللغة واللغويين. وإذا قبلنا بهذا المفهوم، فإننا نقبل بالتغيير أو التجديد في فكر الناطق وتفكيره، وقد يكون ذلك مقبولا إلى حد بعيد، إذا اعتبرنا الإنسان كائنا دائم التطور والتجدد والتغير في تفكيره وحياته، وعدم التغيير في حياته يعني الجمود والنهاية.

والتغيير في كل شيء له قياساته وحساباته وموازينه، وجميعها تخضع لقانون التطور القاضي بالنسبية في كل شيء. ومن ثمة، تخضع اللغة لموازين وقياسات؛ وجميعها في اللغة تعد مقادير وكميات. ولا نستبق الحديث عن مقادير اللغة وكمياتها، قبل أن نحدد موضوع المقادير وأشكال الكميات.

قد لا نختلف في قولنا لكل موجود شكل ومحتوى، كما لا نختلف في أن اللغة ظاهرة موجودة؛ ومن ثمة، لها شكلها ومحتواها، ولكل منهما كمية تقاس بقياسه.وأن محتوى اللغة هو دلالتها. وأن شكل اللغة ومحتواها لا ينفصلان إلا نظريا؛ إذ كل منهما موجود بوجود الآخر ومن أجله؛ ولكننا نتساءل عمن السابق في خدمة الآخر، وما هي الوسيلة الناجعة، وما هو الهدف؟ وإذا قيل في اللغة هي وسيلة وقبلنا بهذا، فهي وسيلة مَنْ؟ ومِنْ أجل مَنْ وماذا؟ وجاء في بعض المذاهب النفعية أن (الغاية تبرر الوسيلة) ولكن ما هو عكسها، وهل يصح ذلك فيها؟

ونعود من هذا إلى المنطلقات التي جعلت اللغة شقين: شكلا ومحتوى وأن محتوى اللغة هو دلالتها. وهنا نتساءل، ما موقف العرب من شكل اللغة ودلالتها؟ هذه الدلالة الكامنة في شكلها الصوتي المنطوق؟ وإذا كان شكلها أصواتا منطوقة فما هي العلاقة القائمة بين شكل اللغة ومحتواها، وما هي علاقة الصوت بالدلالة، ونقول هل اللغة دلالة أم أصوات أم هما معا.؟ وننطلق من الفرضية الأولى

اللغة دلالة

إذا تأملنا مواقف اللغويين العرب القدماء وتدبرناها، عبر تاريخ الدراسات اللغوية، ألفيناهم يتعقبون كل وسيلة من وسائل حياتهم بالبحث عن وظيفتها المادية، دون الجمالية، والجانب النظري قيمته تقل عندهم دون العملي؛ والجانب الفني دون النفعي. ومن ثمة تحظى قيمة الوسيلة فوق الغاية.وسموا ذلك لجواهر وأعراضاً. وجميعها أسماء، تقيم الفرق بين الظاهر والخفي؛ وبين العمق والسطح.

وقد انتهى بهم ذلك، إلى شيء سموه المنهج الوصفي، الذي يقف عند الظواهر والمظاهر والأشكال، يقومها ويقيمها، ويقف دونها. وتحوَّل مطلب الدقة والمعيارية والتمحيص، إلى الاكتفاء بالمظاهر والأشكال والتشكيلات، وتحوَّل ما كان مرغوبا فيه إلى مرغوب عنه.

كانت نظرة العربي في بداية أمره مرتجة غير مستقرة على حال، وكان حينها يكتفي باليسير والبسيط من كل شيء، في حياته المادية والمعنوية.كان بعيدا عن التكلف والمغالاة. وكانت نظرتهم الفنية الجمالية للموجودات محصورة في المستعملات؛ واتصفت حياتهم في جميع جوانبها بالبساطة والسهولة واليسر.

وإذا قلبنا نظرنا في نظرتهم، لدلالة الموجودات عندهم، تبيَّن أنها كانت تتصف بالطموح إلى حد الطمع، وقد تيسَّر لهم ذلك، من صفاء جو بواديهم، وسعة أفق طبيعة أراضيهم، وتفردهم في القفار، وخلواتهم في الفيافي.
مكنهم ذلك جميعه من صفاء الفكر، وسعة التخيل؛ فبنوا لأنفسهم قصورا من الطموح والطمع، وكانوا على استعداد لتحقيق ذلك في واقع حياتهم.وفي ذلك قال قائلهم:

إذا ما سكرت فإنني   رب الخورنق والسدير.
وإذا ما صحوت فإنني   راعي الشويهة والبعير

وفي سكراته وصحواته، كان يمتلك شيئا واحدا لايفارقه هو التعبير بالصوت، عما في فكره حال تفكيره؛ وكان يجد فيه تلذذا وملاذا، ونَغَماً ونِعَماً.يقلب اللفظ ليتقلب معه المعنى والفكر؛ أو يقلب الفكر ليتقلب معه المعنى. وفي جميع الحالات، كان يجدد ويعلل الجديد.ومن هنا انتقل الاستعمال اللغوي من مجرد إلقاء مقتضب، وطلب حاجة في لمح وتلميح، إلى نوع من الاستعراض فيه تنغيم وترنيم وإيحاء ومباهاة.وكانت الوسيلة القادرة على تلبية كل رغبات العربي في واقعه وتوقعاته هي التعبير الصوتي، المنطلق من الفكر إلى الفكر. ومن ثمة،كانت اللغة أصواتاً؛ والأصوات كمياتٍ، والكميات موازين وقياساتٍ.

اللغة أصوات

اللغة أصوات
الأصوات كميات
الكميات موازين
الكميات قياسات
بين القياس والميزان

اللغة أصوات:

مما قالوه في اللغة وحصروها فيه، (أنها أصوات). ولكن اللغة، ليست مجرد ظاهرة من الظواهر الصوتية، سواء كانت طبيعية أم إنسانية أم اجتماعية؛ تلك الظواهر العابرة، التي تبدو وتخفى، فتختفي آثارها باختفائها؛ أوتعوض بغيرها من الظواهر. وإنما هي كل ذلك وفوق ذلك.

ومن هنا، تعد اللغة ظاهرة باعتبار استمرار تغيراتها الداخلية، المنعكسة على بعض تشكيلاتها الخارجية، وليست ظاهرة باعتبار منطلقاتها ومرجعياتها الثابتة الدائمة المستمرة، وينتفي عنها مفهوم الظاهرة أخيراً بالنظر إلى إطارها العام وعدم اختلاله باختلاف الظواهر والأحوال.
ومن هنا، تكون اللغة ظاهرة الظواهر الصوتية الإنسانية، وفي جميع حالاتها تؤدي وظيفتها بالصوت الذي يعد أقوى علاقات الكائنات ببعضها.

وإن كانت اللغة ظاهرة باعتبار التغير، فمن مميزات تغيرات أشكالها، هو ثبات أصول بنائها، وعناصر مكوناتها الصوتية. ومهما تنوعت وسائل التواصل اللغوي، وتعددت أشكاله، وتفاوتت غاياته، تبقى صورته الراقية ووسيلته السامية وغايته النبيلة، مكنونة في الأصوات اللغوية الإنسانية. ومن ثمة صدق من قال: (اللغة أصوات)"[1]" وخلفيات هذه العبارة أنها ليست وصفا لواقع، وإنما هي تذكير بما وقع.
إن هذه العبارة ليست خبرية على ما يظهر من توجهها النحوي، وإنما هي إنشائية تنبيهية، بالنظر إلى سياقها الاجتماعي.واللغة هنا جاءت معرَّفة بأداة التعريف، ومن أسماء هذه الأداة (العهدية) وهي تفيد التذكير بالمعروف المتعارف عليه، المستغني عن إعادة ذكره؛ والحديث هنا إشارة إلى المسمى المتفق عليه المتعارف عليه بهذا الاسم.ويكون مفهوم اللغة هنا خاصا مختصا.

[1] – قال بهذا أبو الفتح عثمان بن جني في كتابه الخصائص، ج، 1، ص، 34، تح...

إن هذه العبارة، هي تنبيه إلى شيء غفل عنه الدارسون، وهو أن اللغة إذا كانت أرقى وسيلة من وسائل الإرسال والتبليغ والإيصال والتواصل، فهي صوتية. وأن هذه الأصوات ليست عادية، وإنما هي متميزة عن بقية أصوات المخلوقات في علاقتها بالفكر وصدورها عن التفكير.

وإذا كان الصوت مدركا سمعيا باتفاق، فإنه يحدد كيان المصوت وذاته باتفاق أيضاً؛ ويوضح الصوت كثيرا من مميزات الناطق وخصائصه؛ ولكن هذا الصوت،يقف دون تحديد شيء واحد وهو قيمة الناطق. لأن تحديد القيمة هي من عمل الفكر ووظيفته.وإذا قيل في اللغة هي أصوات ينبغي أن يقال في أصواتها هي أفكار؛ لأن مصدرها الفكر.

وإذا كنا نتعرف على كثير من الذوات المصوتة، ونفرق بينها من خلال أصواتها، سواء كانت من المتحركات فوق الثرى، أم الطائرات في السماء، أم الغائصات العائمات في الماء، وكان ذلك في الماديات؛ فإنه في الإنسان أوضح وأقوى.ومرد ذلك أن صوت الإنسان لا يصدر عن مادة معدنية صناعية أو طبيعية.

الصوت الإنساني مطمْئِنٌ ومخيف، مريح ومزعج، وفي ذلك قال تعالى (ونفخ في الصور فصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله، ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام تنظرون)"[2]"

الصوت ظاهرة تجمع المتناقضات؛ وذلك لأنها من مصدر خاص، هو الفكر الإنساني، ومن الغبن أن نقف بحديث الصوت اللغوي الإنساني عند الوصف، في عصرنا هذا، على ما أوتينا من وسائل تدقيق، وآلات قياس، ومخابر تجريب.ذلك المنهج الوصفي الذي تجاوزه الزمان والمكان والإنسان.

كان الوصف ويكون، في مطلع الدراسة اللغوية. وكان في العربية مع أبي الأسود الدؤلي، وأقرب تلاميذه إلى زمانه ومكانه وعلمه. ولكن هذه النظرة تغيرت عند اللغويين والقراء، في منتصف القرن الثاني هجري، بدليل ما ردَّ به عبد الله بن أبي إسحاق على سؤال يونس بن حبيب، بقوله: (عليك بباب من النحو يطرد وينقاس) والقياس تحليل وتعليل وتطبيق.

الصوت اللغوي الإنساني ظاهرة فكرية، وإذا وصفنا هذه الظاهرة بأنها مدرك سمعي، فينبغي أن نضيف إليها فكري، ونقول: (الصوت، مدرك سمعي فكري)؛ كما ينبغي أن نحدد مصدر السمع وصاحبه، أهو المرسل المتكلم أم السامع المستقبل؟ ومن المتفق عليه أن المتكلم يسمع كلامه عند صدوره منه. وقبل إرساله إلى المتكلم. ومن هنا، يقوم بعملية تعديل وتجميل لما يرسل قبل إرساله.ولكن الذي يدرك السمع إدراكا وظيفيا هو المستقبل السامع وعليه المدار والاعتماد.وهو الذي قال فيه تعالى: (أو ألْقَى السمع وهو شهيد)"[3]"

ومؤدى هذه العبارة، أن أرقى وسيلة التعبير ما كانت مدركات سمعية، وليس الصوت المقصود هنا هو مجرد الموجات الفيزيائية، وإن كان هذا جانب من جوانبها وصورة من صورها، ولكن المبتغى هو ما وراء الصوت وما يختفي من خلفه.

إذا قيل في اللغة: هي (أصوات). فإن ذلك حدها، وليس تعريفها. والحدود تقيم الفواصل والحواجز لتمييز الموجودات عن بعضها، وحد اللغة أي ما يفصلها عن غيرها وتستقل به بذاتها. ونكرر القول مؤكدين بأننا إذا أمعنا النظر في الموجودات، وجدنا للكثير منها أصواتا تعبر به عن وجودها. ولكن تلك الأصوات ليست حدودا لها في وجودها من حيث قيمة وجودها وإنما أصواتها هي تحديد لصور وجودها؛ فبأصواتها نتعرف عليها وتكون أصواتها تعريفات لها، أما أصوات الإنسان، فليست مجرد تعريف لوجوده، وإنما أصواته هي التي تحدد قيمة وجوده. وفي ذلك قالوا: المرء بأصغريه قلبه ولسانه، ولسان الفتى نصف ونصف فؤاده. وارتبط صوت الإنسان بقلبه وفكره.

وينتقل الصوت من مجرد اهتزازات هوائية، وموجات فيزيائية، إلى اهتزازاتِ فكرٍ وتموجات تفكيرٍ، ومن هنا، يمتزج الصوت اللغوي بالفكر الإنساني، ومن تعريفات الإنسان أنه

---

[2] – الآية، 68 من سورة الزمر.

[3] – الآية،37، من سورة (ق)

حيوان ناطق، ومن النطق جاء المنطق (والمنطق الكلام)"[4]" والكلام أصوات، (وصوت كل شيء:منطقه ونطقه)"[5]" وإذا التقى مفهوم النطق بالمنطق، صار الصوت المنطوق منطقاً، وإذا كان النطق فكراً، آل المنطوق إلى تفكير بصوت مبني على أساس المقادير والمقاييس والكميات.

والصوت كميات

لقد انتهينا إلى أن اللغة دلالة واللغة أنواع، أرقاها ما كانت صوتا. والصوت مدرك سمعي مقيس، وما يقاس من كل شيء هو كميته، والكمية تقدير للفائدة. والعرب يقدرون الفائدة اللغوية، بالدلالة التي تنقلها أصواتها المرسلة إلى السامع، ويعملون على مراعاتها وتحقيقها. وقالوا في فائدة الجملة الاسمية (النار محرقة) هي من تحصيل الحاصل، أي لا جديد فيها؛ والجديد من الكلام المنطوق هو كميته التي تُقوَّم وتقاس.

وقد راعى العرب الكميات، في جميع المستويات اللغوية، ومجالاتها، وموضوعاتها. من أصوات ومفردات وتراكيب.وتسوق لنا الأخبار عن بواكير الحركة النقدية، أنها كانت حول كميات الأداء ومقاديره. ومن هذا القبيل، جاء تفضيل النابغة الذبياني للخنساء على حسان بن ثابت بقوله له: (اسمع ياابن أخي، قللتَ سيوفك وصغرتَ جفانك) والحكم بالقلة والصغر، حكم كمي.

والكمية هنا نوعان الأولى عديدية في (قللتَ) والثانية جسمية في (صغَّرت). وقد كانت العرب تراعي الخفة والرشاقة في الأداء الصوتي وتعمل على تحقيقه، في فنون الإلقاء. وقد كانت القراءات القرآنية مصدر الدراسات اللغوية وموجهها.

الكميات الصوتية عند القراء

كان أول مانزل من القرآن الكريم قوله تعالى:(اِقرأْ)"[6]"والقراءة في مفهومها العام هي كل صوت منطوق مرسل، ثم نزل قوله تعالى:(ورتل القرآن ترتيلاً،إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً)"[7]" وفي هاتين الآيتين ثلاث إشارات إلى الكميات الصوتية وهي: (الترتيل، والإلقاء، والثقل.) ومن هنا، توجهت العناية إلى مفهوم الترتيل، والتجويد.ثم جاء البحث في تقعيد المفاهيم وتخصيص المصطلحات؛ وكان القراء سباقين في إرساء كميات الصوت اللغوي، ثم جاء اللغويون ليقعدوا ما وصفه القراء ويقننوه.

ويفهم من جميع النصوص والروايات العربية، أن الباعث على تقعيد اللغة العربية كان القرآن الكريم، وكان معظم اللغويين - إن لم يكونوا كلهم - قراءً، والقراءات كلها، موازين وكيفيات، لنطق الكميات.واتجه القراء في تحديد الكميات الصوتية ثلاثة اتجاهات؛ واحد نحو الاتساع، وآخر صوب الامتداد، والثالث نحو التلوين في الجميع؛ وسنحاول تتبع هذه الآراء باختصار فيما هوآت.

كميات الاتساع عند القراء:

الاتساع مفهوم يخالفه الضيق، كما أن الاتساع صفة محمودة في مجمل المجالات، وهي توسيع المجال وامتداده، ومن هنا يلتقي مفهوم الاتساع بالامتداد باعتباره وصفا لمد المقياس ومطه في جميع الاتجاهات.وتنحصر كمية الاتساع عند القراء في أربعة مستويات.أولها التفخيم، ويقابله الترقيق؛ ثم التوسط بينهما.وأخيرا الحياد، أو المتداخل. ولكل كمية مجال، وأولها التفخيم.

التفخيم في مفهومه العام يوحي بالتعظيم؛ وأحيانا يمتد إلى مجال الإجلال والإكبار.وهو عند القراء تضعيف وتوسيع للكمية الصوتية في صوامت معدودة حصروها في أربعة سموها

---

[4] – ابن منظور لسان العرب، ج،10.ص، 354،ع، س، 21.

[5] – نفسه.

[6] – الآية الأولى من سورة العلق.

[7] – الآيتان، 4،5، من سورة المزمل.

المطبقات وهي: (الصاد والضاد والطاء والظاء)"[8]" ومع اتفاق الجميع على وصف الكمية هنا، فإنهم لم يحددوا مقياسها، من حيث المدة الزمنية التي يستغرقها نطقها، ومن حيث قوة التردد فيها.مع أنهم أشاروا إلى تقسيمها من حيث ا والضعف، وبالنظر إلى صفاتها ثلاثة أقسام: صفات قوية، وصفات ضعيفة، وصفات متوسطة"[9]".

ولكن هؤلاء لم يحددوا كميات هذه الصفات ولا موازينها، مع ما قدموه من الدقة والتحري في وصف كميات الصوائت متصلة ومنفصلة على اختلاف حالات الاتصال والانفصال، بحسب مراعاة الجوار والأحوال."[10]"

وفي مقابل التفخيم، يذكر القراء كمية التوسط، التي يختص بها (الغين والخاء والقاف)، ثم الترقيق لصوامت (الذال والسين والتاء)؛ وكميات الترقيق يسهل قياسها لو اتخذ التفخيم قياسه. لأن هذه المرققة هي مقابلات للمفخمة؛ السين في مقابل الصاد، والتاء في مقابل الطاء، والذال في مقابل صوتي الضاد والظاء المعجمتين.

ويبقى الحياد الذي جعل القراء كمياته خاضعة للسياق، ومجموع أصواته ستة عشر صامتا؛ وهي: كل ما ليس مفخما ولا متوسطا ولا مرققا قبل إدراجه في التراكيب.ويتحدث القراء عن أصوات المد واللين، في مقدمة الحياديات، ثم يعرجون على جميع غير المطبقات، ليجعلوها خاضعة للسياق.هذه مجمل كميات الاتساع ومقاييسها عند القراء، وسنرى حالها عند اللغويين

كميات الاتساع عند اللغويين:

انطلق اللغويون والقراء في خط واحد هو ضبط أداء اللغة العربية في المنظوم والمنثور من تراكيبها؛ وكانت العناية بالقراءة القرآنية في المرتبة الأولى، وكان المقعِّدون للغة في منطلق العملية كلهم قراءً، وكانوا متعاونين، اللغويون ينطلقون منظرين والقراء يقتفون خطاهم مطبقين؛ وكلهم يعملون في مجال واحد هو العربية.

لم يتوقف الاهتمام بالصوت اللغوي عند القراء اللغويين، بل اتسع مفهومه ليشمل كل من يكتب بالعربية ويؤلف فيها، فكان منهم الفلاسفة والفقهاء والفنانون، وغيرهم. وكان لكل منهم نظرة في الصوت اللغوي، يختلف فيها عن غيره، وإذا قلنا اللغويين بعد الآن، فإنما نستثني منهم القراء، ونبقي على جميع من ذكروا من غيرهم.ولكننا نركز بالدرجة الأولى على من تحدثوا عن الصوت اللغوي وألفوا فيه، من أية طائفة كانوا؛ ولنقف مع هؤلاء اللغويين جميعا فيما قالوه في كميات الاتساع.

مع التاريخ:

انطلق الدرس اللغوي عند العرب، في منتصف القرن الأول هجري مع أبي الأسود الدؤلي، باتفاق. وتابع تلاميذه وتلاميذهم من بعده عمله، في مجال الصوت اللغوي؛ وكانت الدراسة الصوتية تعرف (بالحروف) مع أن الدرس الصوتي العربي انطلق من الصوائت (الحركات) وليس من الصوامت (الحروف). ولعل أول من تحدث عن الكميات الصوتية، حديثا مجملا بعد أبي الأسود هو الخليل بن أحمد الفراهيدي، وتوسع فيها ومد فروعها تلميذه سيبويه.فهو الذي تحدث عن جميع مواقع الأصوات في الجهاز النطقي؛ ومختلف صفاتها، ومواقعها من الصوامت؛ ولكنه

---

[8] – اتفق جميع القراء واللغويين، على أن هذه الصوامت مطبقة. واختلف بعض الحدثين اللغويين مع القدماء، في جهر الطاء وهمسها.

[9] – ينظر تفصيل هذا عند، محمد خالد عبد العزيز منصور، الوسيط في علم التجويد، 248.مط، دار النفائس، الأردن.ط،1، 1999م

[10] – نفسه، ص.256.

لم يحدد مقاديرها الزمانية، مع إشارات عابرة إلى قياساتها، وذلك لعامل الزمان والمكان وثقافة العصر.

هذا عمل القدماء، وجاء المحدثون العرب، وكان لهم مع الصوت اللغوي جولات في مختلف المجالات، وإذا ما حاولنا التحديد الزمني لنشاط الدرس الصوتي عند المحدثين الذين حاولوا قياس كمياته، فإن ذلك سيعود بنا إلى منتصف القرن العشرين، مع تمام حسَّان في كتابه (مناهج البحث في اللغة.الذي ظهر عام 1955م)

ففي هذا الكتاب، حاول صاحبه الحديث عن الكميات الصوتية مستعملا قياساتها المختصة بجانبيها الفيزيولوجي والفيزيائي.وقد وظف في الجانب الفيزيولوجي، الحنك الصناعي، وفي الجانب الفيزيائي صور الأشعة، وكان في ذلك واصفا للأوضاع والعمليات، غير مقدر للمقاييس والكميات.وفيها قال: (هذه الصورة تفتقد بعض الشروط التي تؤهلها لأن تستخدم كتكنيك لغوي ناجح، ولكنها تعطي صورة واضحة عن الأوضاع الساكنة للنطق)"[11]" ويظهر من قوله هذا، أنه كان يسعى إلى قياس الكميات الصوتية، ولكنه لم يتوصل إلى ذلك؛ وأصبح غير مقتنع بما توصل إليه في تحديد كميات الاتساع للصوامت والصوائت العربية على السواء.

وفي حديثه عن كميات الاتساع قال فيها وفي أصواتها:(نظام التفخيم في اللهجات العامية يختلف عنه في الفصحى، ومن ثم كان الارتباط بين القيم الصحيحة والقيم العلية تفخيما وترقيقا يقتضي اختلافا بين الفصحى والعاميات)"[12]" ويشتم من هذا النص،أنه يبحث عن التملص والتخلص من حديث الكميات.ولم يقل فيها شيئا غير الذي قال.ولكنه نبهنا إلى أن هناك كميات صوتية في العاميات وهي لغة، مازالت تنتظر التقعيد.

ومن بعد تمام حسَّان، توالت بحوث عديدة. ولكنها لم تتوصل إلى تحديد دقيق، يعتمد عليه في قياس كميات الاتساع للصوت اللغوي.ولعل أحسن ما توصل إليه اللغويون في مجال الوزن والقياس ، هو ما أنجزه عبد الرحمان أيوب في كتابه (الكلام إنتاجه وتحليله) الذي سجل فيه ملاحظات قيمة في القياس الصوتي في مجاليه الفيزيولوجي والفيزيائي.

ولكن ما يمكن أن يسجل على هذا العمل، توظيفه المفرط للقياسات التجريدية مما جعل اللغة رموزا وأرقاما غير إنسانية، وتوجهه إلى إنشاء جهاز صوتي اصطناعي يضاهي الإنساني، وانتقاؤه عناصر القياس مما يجعل نظرية الشمول غير متحققة عنده، وكمثال على ذلك، قياسه لمدة الزمان،والثقل للصوامت العربية.

في هذه العملية انتقى المؤلف أصواتا دون غيرها، وجعل قياسه مقصورا على الصوامت الانفجارية (الشديدة)، بقسميها المجهور والمهموس، مستثنيا الصوامت المتوسطة بقسميها، وكأنها ليست عربية."[13]" ونظر إلى الصوت اللغوي نظرة فيزيولوجية، أكثر منها فيزيائية، وتوصل في حديثه عن أعضاء الجهاز النطقي إلى نتائج تفوق ما حصل عليه في الجانب الفيزيائي.

وفي جميع الحالات، يلتقي القراء واللغويون، القدماء والمحدثون؛ في الحديث عن كميات الاتساع، حديث وصف، من غير وزن ولا قياسٍ عامٍ شامل لجميع الأصوات اللغوية العربية.وإن عملوا على مبدإ التقسيم والتفريع والتنويع، فإنهم لم يَحيدوا عن الوصف دون القياس.وإن أشاروا إلى مبدإ الخفة والثقل، فإن ذلك من قبيل الإحساس والتخمين. والشعورُ بميزان الكمية ليس وزنا لها.

---

[11] – تمام حسان، مناهج البحث في اللغة، مكتبة الأ نجلو المصرية، مطبعة الرسالة، ط،1، 1955م.

[12] – نفسه، ص.108.

[13] – ينظر تفصيل هذا، عند عبد الرحمان أيوب في الكلام إنتاجه وتحليله، في صص، 64،69، 70.مط،جامعة الكويت، ط،1، 1984م.

تحدث المهتمون والمختصون عن مخارج الحروف وصفاتها واصفين بقولهم: (معرفة المخرج بمنزلة الوزن والمقدار، ومعرفة الصفة بمنزلة المحك والمعيار.)"[14]" ومع ذلك لم يزنوا كميات الصوت بالميزان المخصص لها؛ والميزان عندهم من هذا القبيل، هو حديث عنه وليس هو.هذا جانب من حديث القراء واللغويين عن قياس كميات الاتساع، ويبقى حديث كميات الامتداد، عند القراء واللغويين.

كميات الامتداد عند القراء:

مما هو متفق عليه، أن الدراسة اللغوية وبخاصة جوانب التقعيد منها، ليست حصراً على فرد أو جماعة ما دامت ملكا لجميع من يتكلمها أو يهتم بها، ولكن بين الناطقين والمهتمين بها مراتب ودرجات، وممن سجل لهم تاريخ اللغة اهتمامهم بها أكثر من غيرهم في بداية التقعيد هم القراء، وقد سجلنا هذا الموقف من قبل.وذهبنا فيه إلى أن جميع من اهتم بتقعيد اللغة في بزوغ فجرها هم القراء، وأن الذين يسمون لغويين هم قراءٌ في الأصل.وهم أولو السبق في التقعيد.

ومن هنا، نعيد التذكير بفضل القراء في العمل على تقعيد الجانب الصوتي للغة. والصوت اللغوي هو أول المستويات اللسانية،عند التحليل والتركيب. وأن منطلق الدراسة الصوتية العربية كان صوتيا، وأن الاهتمام كان بالكميات وموازينها، وأن الكميات أنواع أشهرها الاتساعية والمدية، وأن القراء واللغويين عملوا جاهدين في تحديد مقاييس كميات الاتساع وموازينها وقد وُفِّقوا في الوصف، وفشلوا في تحديد المقاييس؛ ذلك في كميات ا لاتساع.

أما كميات المد، فكان للقراء فيها جولات موفقة، وفضائل على غيرهم، وبخاصة اللغويين.وفي هذا المجال نشير إلى أن القراء نظروا لكميات المد نظرة زمانية، وتوفقوا فيها إلى حد بعيد، وهو ميزان من موازين الكميات الصوتية إذ للصوت مقياسان، واحد زماني وهو المدة التي يستغرقها الصوت أثناء حدوثه. وقد أشار إلى هذا بعضهم بقوله: (والمد طول زمان الصوت)"[15]" وآخر طاقوي، وهو مدى ثقله على النطق، أو ما يعرف عند المحدثين بدرجة التردد.

وقد نشط القراء في تحديد مدة حدوث الصوت أو وصفِها على الأقل، وصفا يوحي بالقياس الزمني للحدوث.وكان هذا القياس في المديات التي تحدد للصوت مدته، واتخذت هذه العناية عنوانا لها سموه المدود.

المدود تقسيمات وقياسات:

عرَّف القراء المد لغة بأنه مطلق الزيادة، وهو (إطالة الصوت بحرف من حروف المد الثلاثة عند ملاقاة همز أو سكون)"[16]" وما يظهر من هذا النص، أن اهتمام القراء موجه للمضاعفات لا للأصول، ولو أنهم أشاروا للأصول بقولهم (المد زيادة) والزيادة لا تكون إلا بعد تحقيق الأصل واكتماله، فقد تركوا الأصول هنا، مع إشارتهم إليها في مواضع أخرى، ونعني بالأصول الصوائت القصيرة التي تمتد كمياتها وتتنوع.وانطلقوا مما سموه القصر؛ وعرّفوه بأنه:

---

[14] – صبحي الصالح، دراسات في فقه اللغة، ص،277.مط، دار العلم للملايين، بيروت، ط، 4، 1970م.

[15] – علي بن القاصح، سراج القارئ المبتدئ وتذكار المقرئ المنتهي، على شرح الشاطبية، ص،67، مط، المكتبة التجارية الكبرى بمصر، ط،1، 1934م

[16]– محمد الصادق قمحاوي، البرهان في تجويد القرآن، ص، 75، مط، مكتبة ابن تيمية بالقاهرة، ط،1980،1م

(ما كان مقداره حركتان، وليس المراد بالقصر ترك المد بالكلية)"[17]" والملاحظ هنا، أن القصر ليس صائتا قصيراً، وإنما هو الصائت الطويل؛ ومعنى هذا أنهم تركوا الحديث عن أصل الكميات.
وإذا كان المد هو إطالة الصوت الأصلي، فإن لهذا الصوت الأصلي فروعا هي أجزاء كمياته، وقد اهتم القراء بفرعين هما الإشمام والروم، وقللوا من أهمية الثالث الذي هو الاختلاس.وجميعها أجزاء لكميات الأصول.وسنعيد النظر في تنظيم تقسيماتهم مع مراعاة ما قالوه فيها.
جعل القراء للمد أقساما عدة، منها أصول وفروع وما يهمنا من كل تقسيماتهم هو موازين الكمية الصوتية من كل قسم وتقسيم، ويظهر من أول الملاحظات أن للفتحة والألف منها، القسم الأكبر من الدراسة، والحظ الأوفر من العناية بالأصول، وأن لغير الألف مواطن غلبة ومواطن انسحاب.وحتى نتمكن من التحكم في الكميات من حيث مصطلحاتها وموازينها، نقوم بضبطها في تنظيم صوتي يتقابل مع النظام الحسابي المتري.
بين النظام المتري والتنظيم الصوتي
من المعروف أن القياس المتري ثلاثة أنواع، الطولي للمسافات، والمربع للمساحات، والمكعب للمجسمات؛ وأنها جميعها تعتمد على قياس الطول الذي هو مد وامتداد في جميع الاتجاهات. ومن هذه النظرة العملية العلمية الوظيفية، ارتأينا إعارة نظام المتر الطولي لمقارنته مع كميات الامتداد، لمشابهة بينهما في العلاقة الوظيفية.
ونتعامل مع المتر الطولي، لأنه هو الوحدة الأساسية لقياس الامتداد، وله أجزاء ومضاعفات، تعتمد التنظيم العشري في القياس وأجزاؤه هي الملميتر والسنتيمتر والدسيمتر.ومضاعفاته هي: الدكامتر والهكتومتر والكلومتر، وفي الجميع يعد المتر الوحدة الأساسية، وموقعه الوسط بين الأجزاء والمضاعفات؛ ويمكن إجراء مقارنة عملية بين النظام المتري والتنظيم الصوتي في ما يأتي:

جدول المقارنات:

الأجزاء				*الوحدة*	*المضاعفات*		
النظام المتري	مم	سم	دسم	المتر	دكم	هكم	كم
التنظيم الصوتي	الاختلاس	الإشمام	الروم	الحركة	المد	التمديد	الاستطالة

في هذا الجدول، يظهر التقابل جليا، فيما بين مكونات النظام المتري والتنظيم الصوتي،وأن الأجزاء والمضاعفات متقابلة مع بعضها، إلا أن القياس مختلف فيهما، فبينما يخضع النظام المتري لقياسات عشرية هندسية ، تخضع المكونات الصوتية لحسابات عددية.ونضيف إلى أنها ليست دقيقة كل الدقة، وهذا ما نقف عنده في إيجاز.
ركز القراء نظرتهم على كميات المد، وجعلوها قسمين أصلية وسموها طبيعية، وهي الألف الناتجة عن تكرار الفتحة، وقدروا مدتها الزمانية بعقد الإصبع مرتين،"[18]" والفرعية نوعان، وهي الكمية الصوتية المدية التي تنتج عن وجود صائت طويل متبوع بهمزة أو سكون في مثل:(شاءَ، ودابَّة)، فكمية الألف في شاء ودابة، مضاعفة على اختلاف في المدة الزمنية التي تستغرقها كل

[17] – محمد خالد عبد العزيز منصور، الوسيط في علم التجويد، ص،158. وفي التركيب اللغوي لهذا النص نظر.

[18] – محمد الصادق قمحاوي، البرهان في تجويد القرآن، ص.75.

منهما، وقد أجمع القراء على أن المدة الزمنية هي المقدرة مابين حركتين وست حركات، المتمثلة في حركة أصابع اليد، ولكن المدة الزمنية التي يستغرقها الإصبع عند شده وبسطه تبقى غير معلومة. ومن هنا عاد الدرس الصوتي إلى الوصف بدل القياس، مع أن الكميات قياسات.

الكميات قياسات

انطلقنا في مستهل حديثنا من مفهوم الكم دون الكيف، ولا نصل إلى حقيقة الكيف إلا من وجود الكم، لأن الكم هو الموجود والكيف وصفه وقياسه، وقد عمل اللغويون والقراء العرب جاهدين في هذا المجال وتوصلوا بجهودهم إلى الوصف دون القياس، وكان وصفهم دقيقا صادقا فيما وصفوه؛ ولكن ذلك لا يشفع لهم وللمعاصرين منهم على الخصوص، عندما يُقارن الدرس الصوتي العربي مع غيره.

تحدثنا عن بعض القياسات في كميات الامتداد ونبهنا على جانب الضعف دون الخلل فيها، وتمنينا على المحدثين لو أضافوا جديدا إلى القديم بالقياس لا بالوصف، وأشرنا إلى بعض الآثار المستنيرة في هذا الجانب مع ما يعوزها من الدقة والاختصاص والانتماء.وإذ نحن بصدد الحديث عن المحور الرابع من هذا البحث،فما زال فكرنا متعلقا بإشكالية المقادير والموازين، وكأن بهذا البحث يسعى إلى طرح بديل في العلاقة بين الصوت واللغة والفكر.

قال ابن جني وهو من علماء القرن الرابع هجري (اللغة أصوات)"[19]" وحان الوقت ـ في نظرنا ـ أن نقول اللغة كميات وقياسات،وإذا العلم أصبح مقتدرا على قياس كل شيء فهل هو عاجز عن قياس اللغة، وإذا قلنا اللغة أصوات والأصوات أفكار، فإن القياس الذي ندعو إليه، هو تقدير المسافة الكائنة وقياس العلاقة الرابطة بين الفكر والصوت والدلالة.

وإذا فعلنا ذلك، وتوصلنا إليه؛ نكون قدمنا خدمة جليلة للغة واللغويين.ونقلنا الدرس اللغوي أو انتقلنا به عند التحليل، من مجرد الوصف والتخمين والإسقاط، عن معاني النص ودلالاته، إلى قياسات دقيقة يطمئن إليها المرسل والمستقبل معا، وجعلنا الدرس اللغوي من خلال أصواته مجال بحث علمي لجميع علماء اللغة والعالمين بالعربية؛

والكميات فوق ما سبق تقديرات معلومة، وموازين محدودة.

الكميات موازين:

قدمنا القياس على الميزان، وإن كان الميزان أعم في نظرنا فهو نفسه قياس، مع تداخل بينهما تفصل فيه نظرة الأوليات، والميزان أدق حكماً والقياس أعم في تقدير الكمية والنوع، والميزان في مجال الدراسة اللغوية متسع المجال النظري، وعند التطبيق ينحصر في مجالي المنظوم من القول وتحديد كيفيات نطق المفردات.وقالوا في الأول، ميزان العروض. وفيه ألف أحمد الهاشمي كتابا سماه ميزان الذهب في صناعة شعر العرب. وفي الثاني ميزان الصرف، والمؤلفات فيه عديدة.وكلها موازين.

واللغة العربية منذ أن اهتم بها أهلها، بنوا اهتمامهم على الكميات والموازين، وعلى الحسابات والمقادير، فهذا سيبويه يؤسس نظريته اللغوية على مجاري الكلام الثمانية، والحروف عنده أصول وفروع أعداد ومعدودات، وكلها كميات موزونة. والعلامة الصوتية الإعرابية هي علامات موضوعة لكميات، على اختلاف مواقعها من المفردات والتراكيب، من بدايات وأواسط ونهايات.

وركز العرب في دراساتهم اللغوية على الصوائت ووظائفها أكثر من تركيزهم على الصوامت، وراعوا أواسط المفردات باعتبارها، منطلق التقسيمات الثلاثية، صوت سابق وصوت لاحق، والعناية بالوسط. لأن أصل المفردة العربية ثلاثة أصوات وهي أعداد لكميات؛ بل هي ميزان، كفتاه بداية المفردة ونهايتها؛ ولسانه وسط الصيغة الإفرادية.

ومن اهتمام الدارسين بالكميات الصوتية والموازين، مراعاتهم لمبدأ الخفة والثقل في الإفراد والتركيب، وهي مصطلحات ومفاهيم دلالتها الموازين. وجعلوا للصوائت مقادير ومراتب، كلها

---

[19] – ينظر هذا في الخصائص، ج،1، ص،34 .

موازين. وكانت الضمة أقوى الحركات عندهم وأثقلها؛ والكسرة أضعف الحركات وأخفها، والفتحة متوسطة حيادية في الإفراد والتركيب، وكأنها لاميزان لها، مع أنها تحتمل كل الموازين؛ ولنا على نظرة التقسيمات العربية للصوائت، تحفظ ورأي.

وترك العرب السكون جانبا لعدم دلالته على رقم حسابي يجمع العدد بالمعدود. وهو في مرتبة الصفر، والصفر علامة الخلاء، على ما قالوا؛"[20] والحساب كله يبدأ من الصفر.والصفر هو السكون في شكله، والحديث عن الصفر هنا هو العربي وليس الهندي الذي تمثله نقطة، وهو المقحم في تراثنا العلمي.

وإذا كانت الأصوات كلها موازين وكميات، ففي حديث الكميات الصوتية، كثير من الخلط والغلط، فليست الضمة أثقل الحركات، والكسرة أخفها، على ما قالوه وسجلوه وحاولوا تعليله، بل العكس هو الصحيح، وهو ما ثبت باستعمال القياسات العلمية المختصة بفيزياء الصوت.وإذا كانت الضمة دون الكسرة في الثقل، فهي أكثر منها شيوعا واستعمالا وهذه حقيقة ثابتة.

وتبقى كمية السكون مغيبة، وهي أهم كمية صوتية يجب أن تراعى، لمالها من سعة توظيف وشيوع في الاستعمال اللغوي.وأشرت سابقا إلى وجود السكون فيما منعوه منه.كالأسماء والأدوات، وفي كل مواقع المفردات والتراكيب.

وفي التراث العربي، تغيب السكون عن التقسيم في مطلع الدرس اللغوي مع أبي الأسود. وجعله الخليل دارة تشبه الصفر، وهو علامة على عدم وجود أي صائت في هذا الموضع؛ وهو تعبير صادق صحيح، بالنظر إلى عدم وجود أية علامة من العلامات التي وضعها أبو الأسود.ولكن الدارسين أضاعوا حقه لما جعلوا كميته أخف الكميات وزنا.

وقسم ابن جني الصوامت السواكن إلى قسمين: أصلي وهو (مايبنى على السكون، والآخر ماكان متحركا ثم أسكن)"[21] ومثال الأول، تسكين الكاف من سكر. ومثال الثاني، تسكين الدال الأولى من مدّ، وإزالتها في امددْ. وجعله القراء من شروط الإدغام ومد الممدود.وجميعها نظرات في تقدير الكمية الصوتية وقياسها ووزنها.وننتهي إلى أن جميع ما سبق عرضه ومناقشته وتحليله ينضوي تحت مفهوم عام يمكن تسميته مقادير متداخلة تعمل على تكامل القدرة اللغوية الكامنة في كميات أصواتها.

ملتقى المقادير

إذا سلمنا بأن اللغة من جهة وصفها (هي أصوات)، وانتهى بنا التتبع إلى أنها كميات منحصرة في موازين وقياسات، وكانت اللغة من جهة وظيفتها (وسيلة تواصل) ومن جهة دراستها، مستويات ومجالات وموضوعات. ومن جهة انتمائها (ظاهرة إنسانية) معبرة عن حياته بجميع أطيافها، وحياة الإنسان مستويات.وكانت اللغة من هنا مجموعة من الأنظمة والتنظيمات، المعقدة كحياة الإنسان الناطق بها، ولعل ما يجمع خيوطها هو مفهوم (مستويات الكميات)؛ وأول المستويات اللغوية أصواتها.

قدمنا للأصوات جدولا قابلناها فيه بالنظام المتري، وانصرفنا عن مناقشته حينها مرجئين ذلك إلى منتهى هذا التحليل، حين نلتقي مع النظام والتنظيم من جديد؛ لأنه جامع لعدة معطيات تعود إلى المستويات، وإذا كان أول المستويات اللسانية هو الصوت، فإن أول المستويات الصوتية بالنظر إلى أجزائه مازال غير واضح التسمية والكمية والوظيفة.

لقد سجلنا في الخانة التنظيمية للمقاييس الصوتية (الاختلاس) الصوتي في مقابل (الملميتر) الحسابي.وعند المقابلة بين المصطلحين يظهر التقدير الحسابي أوضح من الصوتي في مفهومه

[20] – عبد الرحمان بن محمد الخضري، رسالة في علم الحساب، ص،131. المجموع الكامل للمتون، مكتب البحوث والدراسات، مط، دار لمعرفة، الدار البيضاء المغرب الأقصى. د.ت.

[21] – ينظر تفصيل ذا في الخصائص،ج.2. ص،337.وما بعدها.

وكميته ووظيفته، وبالعودة إلى مستعملي مصطلح (الاختلاس) من القراء واللغويين نجد ه عند القراء صويتا غامضا وعند اللغويين اسما مهملا.(والمختلسون هم الذين يسرعون اللفظ)"[22]" وقياس السرعة غير مذكور.
الاختلاس عند القراء غامض الكمية والوظيفة، فهم يتحدثون عن ثلاث كميات جزئية ذكرناها من قبل وهي (الاختلاس والإشمام والروم) ولكنهم عند التوظيف نجدهم يتجاهلون الاختلاس الذي نراه أساس الكميات، وعند ذكره يتداخل مع الإشمام.وقالوا فيه: (الإشمام للعين لا للأذن، وليست فيه حركة البتة)"[23]"وعلامة الإشمام نقطة توضع تحت الصامت وأحيانا فوقه، وعند التطبيق يضطرب أمر القراء فيه، ويجعلونه في نون الفعل المضارع في مثل (تَأْمَنَّا) من قوله تعالى: (قالوا يا أبانا مالك لا تَأْمَنَّا على يوسف)"[24]"وهو هنا له علامة في المصحف المرتل، وجيء به لإزالة ما قد يقع من اللبس الدلالي بين النهي والنفي.ويصبح الاختلاس مصطلحا غامضا غير واضح الكمية الصوتية والوظيفة عند القراء.
وفي نطق الراء من قوله تعالى: (قال رب إني لما أنزلت إلي من خير فقير)"[25]" يقولون هذا إشمام في الراء، ويعيدون القاعدة نفسها (الإشمام للعين لا للأذن).كما يجعلون الإشمام في بداية المباني وأواسطها ونهاياتها"[26]"، وذلك كله بالذكر والوصف لا بالقياس والتقدير، وعند غياب الدقة في التقدير، تتداخل المقادير.

الروم:

وفي حديث الروم تبدأ كمية الجزئيات في الوضوح، من الناحية الوصفية لا الحسابية، وقد رأينا علامة الإشمام وهي نقطة توضع تحت الصامت أو فوقه.ولما كانت كمية الإشمام أقل من كمية الروم، جعل سيبويه علامة الإشمام نقطة، وعلامة الروم خطا، (لأن النقطة أنقص من الخط)"[27]" وبالروم (يكاد يكون الحرف متحركا)"[28]"وبه يزول الشبه الصوتي الدال في الخطاب بين ضمير الخطاب في (أنتَ وأنتِ)"[29]" وإذا كان الاختلاس مجرد سرعة في اللفظ، والإشمام وحي بالشفة دون اللفظ، والروم يقترب فيه الصوت من تحقق اللفظ، فإن جميع ذلك كميات صوتية موصوفة غير موزونة،واللغة موازين ونحن في حاجة إلى موازين.
هذا جانب من ملتقى مقادير الكميات الصوتية، بجانبيها الاتساعي والتمديدي، تحدثنا فيه عنهما بإيجاز، وتوصلنا إلى أنها أخذت نصيبها الأوفر من الوصف، وتبقى محتاجة إلى القياس والمقدار والوزن. وكل مالا وزن له، موجود بلا قيمة له. سواء كان من الماديات أم المعنويات، وملاحظة المقاييس والمقادير تقودنا أحيانا إلى تداخلها وهو ما تحدثنا عنه، وأحياناً إلى تنازعها وهو ما نقف عنده لاحقاً.

---

[22] – سيبويه، الكتاب، ج،4، ص،202.

[23] – ينظر تفصيل هذا في الخصائص لابن جني، ج،1، ص،73، س،4.

[24] – الآية، 11.من سورة يوسف عليه السلام.

[25] – الآية24.من سورة القصص.

[26] – مهدي المخزومي، في النحو العربي نقد وتوجيه، ص،304.

[27] – سيبويه، الكتاب، ج، 4، ص، 168.ووجدت في الكتاب أيضا إشارة تجعل الروم مشتركا مع الإمالة.

[28] – ابن جني الخصائص، ج،2، ص،145.

[29] –نفسه،ج، 3، ص،129.

تنازع المقادير

إذا كانت المقادير توصف بالتداخل أحيانا عند التقائها، فإنها عندما تتداخل تتنازع عناصرها في مواضع التقائها، وكأنَّ المجال يضيق عن تجاوربعضها في بعض المواضع، وفي ظاهرة التماثل الصوتي المسمى إدغاما مجال واسع للتمثيل والتطبيق على ما رأيناه، وما يفهم من عناوين الإدغام وتقسيماته، وفيه قال سيبويه: (وإنما وصفت لك حروف المعجم بهذه الصفات لتعرف ما يحسن فيه الإدغام، وما يجوز فيه، وما لا يحسن فيه ذلك ولا يجوز، وما تبدله استثقالا كما تدغم، وما تخفيه وهو بزنة المتحرك)."[30]. ساق سيبويه ست حالات تتداخل فيها العناصر الصوتية وتتنازع المواقع، ولطول هذا المجال نسوق له مفردة واحدة مختلفة الكميات، فيها تقارب صوتي وتنازع موقعي

نقف أولا مع القراء في كيفيات تعاملهم مع تلوينات الضبط في المصحف الشريف، وفي مفردتين متقاربتين نطقا في آيتين متباعدتين موقعا وهما قوله تعالى(لئن بسطت إلي يدك لتقتلني)"[31]" وهنا جاءت التاء المهموسة المستفلة بعد الطاء المجهورة المستعلية المطبقة، فتنازعت الكميتان.وأخرى شبيهة بها في قوله تعالى (قال أحطت بما لم تحط به)"[32]" ومفردة (أحطت) متماثلة مع (بسطت) في مكوناتها وليست متماثلة معها في موازين قياساتها، ونأتي بمفردة مثلهما في موضع آخر هي قوله تعالى:(بل يداه مبسوطتان)"[33]" في هذه الآيات الثلاث ثلاث مفردات جذرها واحد هو(بسط) فكيف اختلفت كمياتها في النطق؟

تختلف كمية كل صوت عند قراءته بحسب الجوار، ففي (أحطْتُّ، وبسطْتُّ) نجد الطاء مشكولة بالسكون والتاء مشددة. ومعنى هذا أن كل صامت معتد بذاته، فالطاء معتدة بإطباقها واستعلائها؛ والتاء معتدة بتكرارها. ومن ثم قالوا: (تدغم الطاء في التاء إدغاما ناقصا لبقاء صفة الإطباق في الطاء)"[34]"وهذا نوع مما سميناه التنازع الصوتي.

وفي مثل هذا المفردة (سيطر) التي جاءت بالطاء قوله تعالى: (لست عليهم بمصيطر)"[35]"وفي قوله تعالى: (أم هم المصيطرون)"[36]"وهنا تنازعت كميتا الإطباق والانفتاح على الموقعية فكانت الغلبة للإطباق.

وتبقى المفردة الثالثة وهي (مبسوطتان). هذه المفردة من الجذر نفسه، ولكنها تختلف في كميتها الصوتية عن سابقتيها في الأداء عند القراء، فالطاء مع كتابتها على صورتها الأصلية وأصل إطباقها تنازعها التاء السابقة لها والسين اللاحقة لها وهما على همسهما ورقتهما، تغلبا عليها وحولا كميتها من التفخيم إلى الترقيق، وصدق من قال: ضعيفان يغلبان قويا.

ولا نغادر هذا المجال دون الإشارة إلى صورة أخرى من تنازع الكميات الصوتية بحسب المواقع التركيبية، وذلك في تجاور الشين والجيم، في مثل(اخرجْ شَيْئاً من جيبك) حين تقدمت الجيم على الشين؛ وعكسها في مثل: (افرشْ جِلبابك) حين تقدمت الشين على الجيم؛ وقبل القراء واللغويون بالإدغام في الأولى وتجنبوه في الثانية، وعللوا لذلك بفضيلة تفشي الشين.

---

30 – سيبويه، الكتاب، ج،4 ، ص،436.

31 – الآية، 28. من سورة، المائدة.

32 – الآية، 22 ، من سورة.النمل

33 – الآية،24، من سورة المائدة.

34 – ينظر هذا في خاتمة المصحف المرتل برواية ورش، ص،ج، مط، الرغاية، ط،1، 1983م

35 – الآية،22، من سورة الغاشية.

36 – الاية،37، من سورة الطور.

وما نقوله نحن فيهما هو غياب القياس العلمي لكميات الجيم والشين في الانفصال والاتصال.ولو كان لكل صوت قياسه وحساباته الخاصة به لاستطاع المتكلم أن يختار مكونات تراكيبه اللغوية بكل بدقة وجمالية.

وتبقى بعد هذا كميات أخرى ولكنها محدودة معلومة، وإن كانت من المتنازعات فقد ارتأينا أن نخصص لها جانبا مختصا بها وندرجها تحت كميات التلوين وهي ما نأتي إلى ذكرها في إيجاز.

من بقايا التلوين

التلوين مفهوم عام يوحي بالتداخل في كل شيء، ويقترب من المدركات البصرية أكثر من غيرها، وفي مجال الدراسة الصوتية الكميات والمقادير والموازين والقياسات، وجميعها تشكيلات صوتية غالبا ما تكون أجزاء وجزئيات، وهي غير الأجزاء السابق حديثها من كميت الاتساع والامتداد، وإن كانت تشترك معها في وسائل القياس، ويمكن أن تنحصر التلوينات الصوتية في خمسة مجالات، هي الإدغام، والإبدال، والقلب، والإمالة ، وتخفيف لهمزة.

هذه التلوينات هي مدار المناقشة والتعليل والتقعيد عند القراء واللغويين، وجميعها كميات صوتية جزئية،لا يخلو منها تأليف من مؤلفات القراءات، ولا نقاش من نقاشات القراء. وقد انطلق سيبويه في الحديث عن الصرف من الإدغام، وبنى الإدغام على الصوامت العربية من حيث عددها ومواقعها وأوصافها وأصولها وفروعها. وأفاض في حديث ما يدغم وما يمتنع فيه الإدغام من الصوامت، وانتهى إلى أن الأصوات التي لاتدغم ولا يدغم فيها أربعة وهي: الواو والياء والألف والهمزة.وتعد هذه الأصوات من الدرجة الثانية في التلوينات، وفصلت الحديث فيها في موضع غير هذا"[37] وقد أدرجت الواو والياء في موضوع القلب، والألف في الإمالة، والهمزة تحت أبحاث التخفيف.

ولكن هذه التلوينات الصويتية التي شغلت القراء واللغويين، ومازالت تشغلهم، تفننوا في وصفها وتوسعوا في مجال حديثها واختلفوا في مواضعها وكمياتها، ومايزالون مختلفين إلى أن يتحدثوا عن مقاديركمياتها من حيث الزمان الذي يستغرقه كل صويت عند النطق به، والطاقة التي يبذلها الناطق فيه.

وأخيرا أقول:

هذه خلاصة الخلاصة، لما يمكن أن يقال في الكميات الصوتية، وما لم يتوصل البحث الصوتي إلى تحديد كميتي الزمان والطاقة لكل صوت في الانفصال والاتصال، وما لم يتوصل الباحثون المختصون إلى ذلك، يبقى فهم اللغة مستعصيا من حيث مبناها ومعناها على المرسل والمستقبل معا، في جميع المستويات والمجالات والموضوعات.

[37] – في رسالتي ماجستير الموسومة بعنوان (الحروف العربية وتبدلاتها الصوتية في كتاب سيبويه) جعلت بابها الثاني للتبدلات الصوتية منها هذه لخمسة وكل واحد منها جعلته فصلا مستقلا عن غيره.